أنواع خطاب الكراهية وتعامل القرآن الكريم معها.

Types of Hate Speech and the Way Holy Quran Dealt with It

أ.م.د . يحيى مقبل صالح الصباحي

Dr. Yahya Moqbel Saleh Al-Sabahi

ملخص :

يبحث الموضوع عن أنواع خطاب الكراهية وتعامل القرآن الكريم معها، ويعالج إشكالية ظهور خطاب الكراهية بشكل لافت في أوساط المجتمعات، وما ترتَّب على ذلك من الصراع بين الأعراق المتنوعة ،واتهام الإسلام من قبل عنصريين بتأجيج الكراهية وتعميق الصراع بين الأمم، ويهدف البحث إلى بيان منطلقات خطاب الكراهية وكيفية تعامل القرآن الكريم معها . و يقوم البحث على المنهج الاستقرائي من خلال استقراء الآيات التي تحدَّثت عن علاقة الإنسان بغيره من الناس خصوصا المُختَلف معهم ، ثم من خلال منهج الاستنباط لمعرفة أسباب العداوات وظهور أنواع خطاب الكراهية بينهم ، وكذا استنباط طرق التعامل مع هذه الأنواع من خلال الآيات التي تحدَّثت عن خلق الإنسان وعلاقته بغيره.

وقد توصل البحث إلى أنَّ أنواع خطاب الكراهية تنبع من دوافع عرقية أو عقدية أو بناءً على أحكام مسبقة، و يتنوع خطاب الكراهية بتنوع الدافع الذي انطلق منه، و من آثار خطاب الكراهية إغلاق أبواب الحوار والتفاهم، وتعميق الانقسام بين المجتمعات. و تعامل القرآن الكريم مع هذا الخطاب من خلال فتح باب الحوار والنقاش مع المخالف وكذا الدعوة إلى التعاون، وأوصى البحث بإقامة الندوات، والمؤتمرات المفتوحة التي تعنى بتنمية النقاش والحوار والتدريب عليه. و تعويد النشء ابتداء من المدارس الابتدائية على تقبل الآخر، وحسن الخطاب مع المخالف، وعدم احتقار الآراء من خلال مناهج دراسية نظرية وعملية مصاحبة .

كلمات مفتاحية:

خطاب- الكراهية-العرق- المعتقد . الآخر.

Abstract:

The study examines the types of hate speech and how Holy Quran has dealt with them. It also addresses the issue of the noticeable emergence of hate speech among societies, and the consequent conflict among the various races. In addition, the study discusses the racial accusation against Islam of fueling hatred and deepening the conflict between nations. The aim of the study is to clarify the premises of hate speech and how Holy Quran deals with them. The researcher uses the inductive approach to investigate the ayat (verses) of Holy Quran that have talked about a person's relationship with other people, especially those who disagree with him/her. The researcher uses the deductive approach to find out the causes of hostilities and the types of hate speech among people, and to formulate ways to deal with these types from the ayat that have talked about the creation of mankind and their relationship with others. The study concludes that the types of hate speech arise from racial or ideological motives or collective prejudices and that hate speech varies with the diversity of the motive. One of the effects of hate speech is that it hampers dialogue and understanding. It deepens the division between societies as well. The research recommends holding seminars and open conferences that are concerned with

developing and training people for discussion and dialogue. The research also recommends accustoming young people to accepting others, speaking well with the ones they disagree with, and respecting opinions of others. This should start from primary schools and through accompanying theoretical and practical curricula.

Keywords: speech, hate, race, belief, the other.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين محمد بن عبدالله الصادق الأمين وبعد:

فإنَّ الله أنزل القرآن الكريم هدايةً للعالمين ، ونورًا لهم في دنياهم وأخراهم، فأقام به الحجة وأتم به النعمة ، ودلهم على أقوم السبل لرعاية شئونهم الدنيوية والأخروية، وبنى من خلال منهجه علاقة البشر بعضهم ببعض، بغض النظر عن مللهم أو أعراقهم وألوانهم إذ الأصل واحدٌ، قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ سورة الحجرات:١٣.

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ سورة النساء:١

وجعل من الخلاف تنوعًا وسنةً اقتضتها مشيئته وإرادته: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ × إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ سورة هود:١١٨-١١٩.

وذكَّر بآداب الخلاف ،مهما كانت الأسباب والدوافع ،فأمر بلين القول، وحسن التخاطب فقال : ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾ ، وذم الجفاة الغلاظ في القول والفعل فقال مادحًا لرسوله : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ سورة آل عمران:١٥٩ . فحسن الخطاب والبعد عن ما يوجد الكراهية، مطلبٌ إسلاميٌ أصيلُ؛ لذا فالبحث سيتناول أنواع خطاب الكراهية وتعامل القرآن الكريم معها من خلال مخطط البحث التالي:

أولًا : مشكلة البحث:

إشكالية ظهور خطاب الكراهية بشكل لافت في أوساط المجتمعات وما ترتب على ذلك من الصراع بين الأعراق المتنوعة، ومع ازدياد الكراهية بين الشعوب يخرج عنصريون يتهمون الإسلام بتأجيج الكراهية وتعميق الصراع بين الأمم وبناء على هذه الاشكالية انبثقت الأسئلة الآتية:

ما هو المنطلق الذي ينطلق منه خطاب الكراهية تجاه الآخر؟

كيف تعامل القرآن الكريم مع أنواع خطاب الكراهية ؟

ثانيًا : أهمية البحث:

تنطلق أهمية البحث من المشكلة التي يعالجها، خصوصًا مع ازدياد خطاب الكراهية في المجتمعات بدوافع عدَّة يسعى العنصريون إلى تكريسها، ثم يلقون اللائمة على الإسلام والمسلمين.

ثالثًا : أهداف البحث:

١- يهدف البحث إلى بيان المنطلقات التي ينطلق منها خطاب الكراهية .

٢- بيان الكيفية التي تعامل القرآن الكريم مع منطلقات خطاب الكراهية .

رابعًا : منهج البحث:

يقوم البحث على المنهج الاستقرائي من خلال استقرار بعض الآيات التي تحدثت عن علاقة الإنسان بغيره من الناس خصوصًا المختلف معهم عقديًّا أو عرقيًّا ، ثم من خلال الاستنباط لمعرفة أسباب العداوات، وظهور خطاب الكراهية بينهم، وكذا استنباط طرق التعامل مع هذا الخطاب من خلال الآيات التي تحدثت عن خلق الإنسان ، وعلاقته بغيره .

خامسًا : الدراسات السابقة :

تتنوع الدراسات في هذا المجال بحسب الجزء الذي استهدفته، ، فمنها ماركز على خطاب الكراهية في وسائل التواصل مثل :كاكايارودون، إغينيو كال، دانيت ألفي،

تياغو، مارتينيز، غابرييلا (٢٠١٥).(مكافحة خطاب الكراهية في الإنترنت.) ترجمة صابر طروات. باريس: منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة .

ومن الدراسات أيضًا: بحث خطاب الكراهية والذي قدم في مؤتمر الإعلام بين خطاب الكراهية والأمن الفكري ...مايو٢٠١٧م للباحث فيصل السرحان يرى الباحث أنَّ هناك علامات تشير إلى استخدام بعض الألفاظ والعبارات ذات ملامح مباشرة تندرج تحت مفهوم خطاب الكراهية «بقصد أو بعكسه ، والاحتماء بذلك خلف ما يُدعى» حرية التعبير ". وإن أكثر ما يميِّز هذا الخطاب ينتشر بشكل ملفت بين جيل الشباب المتعلم وخاصة طلبة الجامعات عبر استخدام التواصل الاجتماعي أو الإعلام الجديد .

كما عُقدت المؤتمرات العلمية مثل: مؤتمر دور الدين والإعلام في مناهضة خطاب الكراهية. الجمعة - ٣ شهر ربيع الأول ١٤٤١ هـ - ٠١نوفمبر٢٠١٩م في العاصمة النمساوية والذي أقامه مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز ... ما يميز البحث المقدم هو التركيز على أنواع خطاب الكراهية، وكيفية تعامل القرآن الكريم معها مما يوجد رؤيةً واضحةً للتعامل مع خطاب الكراهية .

سادسًا : هيكل البحث: يحتوى البحث على أربعة مباحث كالآتي:

المبحث الأول: مفهوم خطاب الكراهية.

المبحث الثاني: خطاب الكراهية بدافع الاستعلاء العرقي والطبقي .

المبحث الثالث: خطاب الكراهية بدافع المعتقد والفكر.

المبحث الرابع :خطاب الكراهية بناء على الأحكام المسبقة .

المبحث الأول
مفهوم خطاب الكراهية

يطلق الخطاب في معاجم اللغة العربية على :

١- الأمر الذى تقع فيه المخاطبة: قال ابن منظور: «وقد خاطبه بالكلام مخاطبةً وخطابًا فهما يتخاطبان، والخطبة هي اسم للكلام الذى يتكلم به الخطيب وهى مثل الرسالة التي لها أول ولها آخر، والمخاطبة مفاعلة من الخطاب وكذلك المشاورة» (ابن منظور،١٩٧٩: ١٢/ ٨٠)، فابن منظور: اعتبر الخطاب مرادفًا للكلام، وجعل له بدايةً ونهايةً دون إغفال خاصية التفاعل فيه، ومن ثمَّ فالخطاب في لسان العرب: هو كلام متفاعل بين متخاطبَين أو أكثر.

٢- الكلام والرسالة، والخطاب المفتوح و هو: « خطابٌ يوجه إلى بعض أولى الأمر علانية، والخطبة هي الكلام المنثور يخاطب به متكلمٌ فصيحٌ جمعًا من الناس لإقناعهم، والخطيب هو المتحدث عن القوم « (مجموعة من المؤلفين،١٩٩٤م:٢٤٣) ، فقد زاد عن لسان العرب في جعل الخطاب موجهًا إلى أشخاص محدَّدين، وجعل هدفه الأساسي الإقناع .

٣- الخَطب: مصدر خَطَب: الحال والشأن. ﴿قال فما خطبكم أيها المرسلون﴾ الحجر:٥٧، الذاريات:٣١. الأمر الشديد يكثر فيه التخاطب، وغلب استعماله للأمر العظيم المكروه. (محمد الباشا،١٩٩٢م: ٤١٤).

٤- الخطاب: « نص مكتوب ينقل من مرسل إلى مرسل إليه، يتضمن عادة أنباءً لا تخصُّ سواهما، ثم انتقل مفهوم الرسالة من مجرد كتابات شخصية إلى جنس أدبي قريب من المقال في الآداب الغربية- سواء أكتب نظماً أو نثراً - أو من المقامة في الأدب العربي». (مجدي وهبة،١٩٨٤م:بتصرف ص١٥٩).

أما في المعاجم الأجنبية فإنَّ الخطاب « مصطلحٌ ألسني حديث يعني حديثا ، محاضرة، خطابا، خاطب، حادث، حاضر، ألقى محاضرة، وتحدث إلى» . (الياس

انطون الياس،١٩٧٢م: ١٩١).

ويطلق لفظ الخطاب: على مجموع المعاني التي يدُّل عليها الخطاب سواء قصد المتكلم على آحاد هذه المعاني أم لا ، أو بعبارة أخرى : مجموع المعاني التي يستطيع متلقي الخطاب في ضوء ما يسمح به الخطاب أنَّ يفهمها، أو يعقلها، أو يستنبطها، أو يستنتجها، أو يستخلصها من الخطاب . (أيمن صالح،٢٠٠٥م:١٧) .

وعلى هذا نجد علماء أصول الفقه يذكرون: أنَّ الألفاظ قوالب للمعاني المستفادة منها، فتارة تستفاد منها من جهة النطق تصريحًا، وتارةً من جهته تلويحًا، فالأول يسمَّى دلالة المنطوق، والثاني يسمَّى دلالة المفهوم. و(المفهوم) ينقسم إلى مفهوم موافقة، ومفهوم مخالفة. فمفهوم الموافقة حيث يكون المسكوت عنه موافقًا للملفوظ به، فإنَّ كان أولى بالحكم من المنطوق به، فيسمَّى فحوى الخطاب، وإن كان مساويًا له، فيسمَّى لحن الخطاب.

أما مفهوم المخالفة: فهو حيث يكون المسكوت عنه مخالفًا للمذكور في الحكم إثباتًا ونفيًا، فيثبت للمسكوت عنه نقيض حكم المنطوق به ويسمَّى دليل الخطاب ،لأنَّ دليله من جنس الخطاب، أو لأنَّ الخطاب دالٌ عليه . (الشوكاني،١٩٩٧م:٢٣).

مما سبق يتَّضح أنَّ لفظ الخطاب يطلق على : الكلام والرسالة سواءًا كانت منطوقة أم مكتوبة تتضمن توجيها لإقناع الناس أو إيصال معاني معينة محددة إليهم .

تعريف الكراهية: من كره والتي تحمل معاني الإباء ، المشقة، المكروه ، وكره الشيء : مقته وأبغضه ، والكره بفتح الكاف وضمِّها وسكون الراء مصدر : كره الشيء إذا أبغضه. (مجمع اللغة العربية، ١٩٦٠م. مادة كره. و (جبران مسعود ،١٩٦٥) مادة كره. و ممد رواس قلعه جي/ حامد صادق ، ١٩٨٥م (الكره) .

من الدلالات اللغوية السابقة يمكن أنَّ نستنبط أنَّ الكراهية: مشاعر سلبية تجاه الآخر، تتسم بالنفور والعدوانية، والاشمئزاز والاستحقار، والنظرة الدونية،

تهدف إلى تدميره وإقصائه .

وبالجمع بين اللفظين-خطاب الكراهية- نستخلص مفهوم خطاب الكراهية: بأنَّه عنفٌ لفظيٌ أو كتابيٌ يتضمَّن تحريضًا صريحًا أو ضمنيًّا عدوانيًّا تشجع المتلقي على السلوك العنيف تجاه الآخر، يستهدف وجوده وفكره ومعتقده .

فخطاب الكراهية يتجاوز مجرَّد النفور، بل يهدف إلى إلحاق الأذى بالغير وتجريده من الإنسانيّة، ومضايقته وترهيبه، وتهميشه والحطّ من كرامته وإذلاله ، واستغلاله لترسيخ فكرة عدم الاكتراث لخصائصه، وإثارة الوحشيّة ضدّه ، بناء على معتقداتٍ وتصوراتٍ عنصريةٍ .

المبحث الثاني
خطاب الكراهية بدافع الاستعلاء العرقي والطبقي

الاستعلاء العرقي والطبقي من الدوافع الرئيسة لظهور خطاب الكراهية، ولتوضيح هذا الدافع نبدأ بتوضيح مفهومي العرق والطبقية.

مفهوم العرق : بحسب المصطلح ووضوحه ظاهرًا، لكن تتعدد دلالاته حسب تعدد المفاهيم للجماعات العرقية فقد تتنوع من كونها مجموعات صغيرةً داخل الدولة مثل: الأمازيغ في الجزائر، أو تتسع لتشمل الآسيويين واللاتينيين والعرب والأوروبيين والأفارقة، ويرى كلٌ من (جون هيتشنسون وانتوني سميث) أنَّ مصطلح العرقية هو مصطلحٌ جديدٌ نسبيًا، ظهر لأول مرة في قاموس أكسفورد الإنجليزي في ١٩٥٣، إلا أنَّ اصوله تعود للصفة -عرقي- التي كان يتمَّ استخدامها بكثره في العصور الوسطى، إلا أنَّ الكلمة تعود في أصولها للكلمة اليونانية ethnos التي كانت تشير إلى القبيلة أو مجموعة الأفراد.

John Hutchinson and Anthony D. Smith, Ethnici-) .(5-ty New York: Oxford University Press, 1996,pp. 4

العرق في اللغة العربية يعرف بأنَّه أصل كل شيء(مجمع اللغة العربية،: ١٩٨٠، ص٤١٥). كما يعرف معجم المصطلحات السياسية العرق بأنَّه مجموعة من البشر يشتركون في عددٍ من الصفات الجسمانية أو الفيزيائية على فرض أنَّهم يمتلكون موروثات جينية وثقافية واحدة(على الدين هلال، نيفين مسعد محرران :١٩٩٤، ص٢١٥.) ولما لاستخدام هذا المصطلح في تقسيم الناس ، يبرز مصطلح الإنسانية خصوصًا في الإسلام باعتبار أنَّ البشرية كلهم ينحدرون من عرقٍ واحد، ومصطلح المواطنة في الدولة العصرية وهي أحد الحلول التي تحدُّ من انتشار خطاب الكراهية.

الطبقية: مفهومٌ معاصرٌ، ظهر بقوة في الأدبيات الماركسية، وهو مفهومٌ يدلُّ على وجود تفاوتٍ طبقيٍ في المجتمع، سواء أكان هذا التفاوت اقتصاديًا أم

اجتماعيًا(مجلة الملتقى: صيف ٢٠٠٥، العدد ١٣).

والطبقية: تركز على نماذج من التراتب الاجتماعي الذي يتم من خلاله تصنيف الناس إلى مجموعة من الفئات الاجتماعية الهرمية (Grant, J. Andrew :2001,161)

والاستعلاء الطبقي: يميِّز بين الناس وفقًا لمكانتهم الاقتصادية أو الاجتماعية.

فالاستعلاء العرقي أو الاستعراقية: (المحنك،٢٠٠٨م:٢٨) :هو اعتقاد إنسان بأنَّ أمته أو الجنس الذي ينتمي إليه الأحسن والأكثر والأولى للبقاء في الحياة من غيره، وكذا الطبقية ، فهو يعتقد أنَّ البقيَّة يجب أنَّ يكونوا أتباعًا لعرقه وطبقته وخدما لهم، وأن عرقه أو نسبه هو مرجع الحكم على الآخرين، إيمانًا بالقيمة الفريدة والصواب التام للعرق والنسب الذي ينتمي إليه، ولا شكَّ أنَّ هذا الخطاب العرقي يعد عنصرا رئيسًا في نشأة الصراعات العرقية والعصبية والتي تصل في أحيانٍ كثيرةٍ إلى حد المذابح والإبادة والتمرد والثورة والإرهاب والحروب.

الشعور بالأفضليَّة في الخلقة، والاعتقاد بالتفاضل والتمايز بين بني البشر على أساس العرق أو اللون، صفةٌ رذيلةٌ أول من حملها إبليس -عليه لعنة الله- يوم أنَّ خلق الله آدم أمر الملائكة بالسجود له لكنَّ إبليس أبى متعللًا بأفضليَّة خلقته: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ سورة الأعراف : ١٢.

فتعلَّل إبليس لامتناعه بأصل خلقته، وأفضليَّة النار على الطين من وجهة نظره، بالرغم أنَّ الخالق واحدٌ باعترافه لكنَّ هذا الشعور المليء بالكبر والتعالي، حمله على الكراهية لهذا المخلوق الذي أراده الله خليفة في الأرض ،وترتب على هذا الخطاب الاستعلائي، حمل مشاعر الكراهية لذريته إلى قيام الساعة، والسعي الحثيث لإضلالهم : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ سورة ص:٨٢.

وإذا كان إبليس حمل خطاب الكراهية بزعم أنَّ أصل خلقته يختلف عن أصل خلقة آدم عليه السلام، وأن الأفضلية لخلقته، فقد ظهر أيضًا أقوامٌ يحملون نفس الشعور ضد بني جنسهم ، وهم من نفس أصلهم.

وهذه الدعوى بالأفضليَّة بحسب العرق الرأي، نابع عما يزعمه البعض من الاختلاف في عنصر الخلق، كما تقدم من مفهوم الآية التي ادَّعى فيها إبليس تفضيل عنصره الناري على العنصر الطيني، ولازال بعض الناس يعتقدون أنَّهم من نسل الآلهة، أو أنَّ البعض يزعم أنَّ له مزية تفضيل على غيره بلون بشرته أو عرقه، وهكذا اختلف الناس، فحصلت العنصرية، وصدت عن الحق وحملت أصحابها على الباطل، فهؤلاء قوم نوح عليه السلام رغم أنَّهم في قبيلة واحدة، يرفضون الإيمان به بحجة أنَّ أتباعه أقل شأنًا منهم في سلمهم الطبقي والعرقي ، فقال الله حاكيا عنهم:﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴾. سورة الشعراء:١١١.

واستمرت العنصرية تحمل مشاعل الكراهية أفرادًا وأممًا، بل وصل باليهود والنصارى الزعم إلى أبعد مدى، كما أخبر الله -سبحانه وتعالى- عنهم في محكم كتابه: (وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم) سورة المائدة:١٨.

وبنو اسرائيل عارضوا تولي طالوت عليهم، بحجة أنَّ وضعه الطبقي والعرقي و المادي أقل شأنًا منهم:﴿ قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ ﴾سورة البقرة: ٢٤٧.

وقلد اللاحق السابق بحمل هذه الدعوى المزيفة وما يترتب عليها من خطاب عنصري مقيت يورث كراهية القول والعمل، فهؤلاء كفار قريش يحملون خطاب الكراهية، ويبنون عليه كل مشاعر الإقصاء، والدعايات المزيفة، والإشاعات الكاذبة بحجة أنَّ محمدًا ﷺليس من كبار القوم وأكثرهم أموالًا فقالوا كما حكى الله عنهم: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءَانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ سورة

الزخرف: ٣١.

فبنوا على هذا أنَّه لا يستحقُّ أنَّ يكون نبيًّا وليس مؤهلًا للرسالة، ونشروا الاشاعات الكاذبة، وافتروا عليه زورًا وكذبًا، فوصفوه بالسحر والجنون والافتراء: ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴾ سورة الأنبياء: ٥.

﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ سورة الذاريات: ٥٢.

وهذا كله ناتج عن الاستعلاء العرقي والطبقي، وحملهم لها، ووراثة هذا المرض عمن سبقهم من الأمم السابقة.

ولمَّا طلبت قريش من النبي ﷺ أنَّ يجعل لهم يومًا منفصلًا عن سائر الناس اذا أراد أنَّ يسلموا ويسمعوا منه. (صحيح مسلم (١٨٧٨/٤) برقم (٢٤١٣)، قال الله ﷻ له : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ سورة الكهف: ٢٨.

واستمرَّ خطاب الكراهية المبني على الاستعلاء العرقي في عصرنا الحاضر ، ففي بلاد الديمقراطيات وحقوق الإنسان ، رسم الغرب صورةً ميتا فيزيقيةً للإغريق متخيلةً وغير واقعية تظهرهم شعبًا عملاقًا ومتفردًا في كل شيء : فهم أول الفلاسفة وأول من فكر في العقل وسكن الكينونة . (عمر كوش،٢٠٠١م:٤٨-٤٩).

واذا كانت وسائل الإعلام الغربية والمتغرِّبة في البلاد الإسلامية تصف الإسلام بأنَّه يحمل خطاب الكراهية، فذاك لصرف النظر عن الداء الذي يحملوه من حقد وتشويه لمعالمه، فالنزعة العرقيَّة والطبقيَّة الاستعلائيَّة لدى الغربيين ظاهرةٌ للعيان، ونظرتهم الدونية للشعوب الأخرى -خصوصًا الإسلامية- ومن ذلك يصف السفير والشاعر الأمريكي جوول بارلو شمال افريقيا في رسائل لزوجته (لقد خلق هذا العالم بطريقةٍ لم أكن لأوافق عليها فهناك أشياء لم أكن لأخلقها لو كان

لي من الأمر شيء ، ومنها مثلًا مدينة الجزائر).
(From Joel Barlow.1996:103)

فيصدُّ عن الحقِّ ويلغي الآخر ولا يقبل بدوره في الحياة؛ بل إنَّ الاستعلاء العرقي والطبقي يُعد عاملًا رئيسًا في نشأة الصراعات العرقية والطبقيَّة، وما نتج عنها من مذابح جماعية، وقاده إلى حروب مدمرة.

تكوَّن عن شعور الاستعلاء، وما أثمره من خطابٍ متطرفٍ، سلوكٌ عدوانيٌ تجاه الآخر تمثل في الآتي :

أ- إلحاق الأذى على أساس اللون والعرق والطبقة الاجتماعية: يتلازم الخطاب المتصل بتفضيل العرق أو لونٍ ما على آخر مع غرس مظاهر الكراهية بين البشر ، وما يسببه من أذىً على المستوى الفردي والجماعي، ويتعدَّد نوع الأذى بالقول والفعل فمن مظاهر الأذى بالقول: السخرية والاستهزاء كما قال قوم نوح عليه السلام: (قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ) سورة الشعراء:١١١.

فالتمييز في المجالس، وتقسيم الناس إلى طبقات واستنقاص الناس في حقوقهم كل ذلك كان سائدًا قبل الإسلام، وهو نفس ما يدعو إليه العنصريون في عصرنا الحاضر، مثل ما حدث في أمريكا ضد السود وما حدث في جنوب إفريقيا في فترة النظام العنصري ،"وما أحدثه النازيون عند وصولهم إلى السلطة من ممارسات وحشيَّة وقهرية ضد العرق الأدنى وراثيًا في نظهرهم كالإبادة والتصفية العرقية والتجارب على البشر،كما برَّر الاستعلاء العرقي للغربيين سيطرتهم على شعوب العالم عسكريًا وثقافيًا واجتماعيًا بحجة أنَّ هذه الشعوب متخلفةٌ وأهلها في أسفل السلسلة البشرية."

puschner Uwe,2014;17

ففي ذهن هتلر كانت الداروينية تقدم التبرير الأخلاقي لعمليات التعقيم الجماعي، والنقاء العرقي، والمذابح الجماعية وغيرها من السياسات غير الأخلاقية

وفق المعايير الإنسانية الطبيعية، وقد وفرت نظرية التطور الأهداف النهائية لهذه السياسات، التحسن البيولوجي للأنواع البشرية. (ريتشارد فيكارتص،٢٠١٧م:٢١٥).

فالخطاب المبنيُّ على التفريق بين الناس على أساس العرق، واعتبار أحد الأعراق أو الألوان هو المميَّز أو المفضل، يكرس الكراهية ويورث الشقاق بين الناس ، ويدمر علاقة أبناء المجتمع بعضهم ببعض .

ب- النظرة الدونية للآخر: نتج عن خطاب الكراهية من خلال الاستعلاء العرقي والطبقي، النظر إلى الآخرين بازدراء؛ ولذا فلا يحقُّ للدُّني في نظر الاستعلاء العرقي أنَّ يتساوى مع غيره في إبداء الرأي ناهيك أنَّ يناقشوا ويحاوروا، فالزعم الفرعوني متغلغل في نفوسهم ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ سورة غافر:٢٩. إلا ما أرى فلا يقبل منهم حقًا كما لم يعترف لهم بحق، والمجتمعات التي تسودها هذه النظرة يغيب عنها التعايش، وتختفي معاني الود،وينعدم الاحترام، ويسود التطرف والإساءات باليد واللسان .

فالغرب المعاصر مدعي الديمقراطية وحقوق الإنسان تغلغلت النزعة العنصرية في خطاب الكراهية لديه مستدعية الاستعلاء العرقي أحيانًا والماضي الاستعماري أحيانًا آخر، فقد وصف كوتون ماثر(١) سلطان المغرب بأنَّه «شيطان أفريقي" وعبَّر عن تقزُّزه من وجود عبيد بيض في شمال إفريقيا يسوسهم سيدٌ عربيٌ-إفريقي، إذ العبودية في عرفه خاصةٌ بالأفارقة السود، ونفس الصورة الشيطانية استخدمها المستعبَد الأميركي السابق جون فوس في وصفه لسكان

(١) -(كوتن ميذر،١٦٦٣ (بالإنجليزية: Cotton Mather)، زميل الجمعية الملكية (١٢ فبراير/شباط - ١٣ فبراير/شباط ١٧٢٨) كان قسًا بيوريتانيًا في نيو إنجلند ذا نفوذًا اجتماعيًا وسياسيًا، ومؤلفًا نشطًا له الكثير من المؤلفات، ومُحرضًا سياسيًا. يشتهر ميذر بدعمه الشديد لمحاكمات السحرة في سالم. ترك ميذر أيضًا تراثًا علميًا بفضل تجاربه في التهجين، وتأييده لاستخدام اللقاح لمكافحة الأمراض. أدى هذا إلى حرمانه من رئاسة هارفرد كوليدج، وهو منصب شغله والده، إنكريس، فيما سبق. ينظر: معرف موسوعة بريتانيكا على الإنترنت: Cotton Mather - باسم: https://www.britannica.com/biography/Cotton-Mather العنوان : Encyclopædia Britannica — تاريخ الاطلاع: ٩ أكتوبر ٢٠١٧

الجزائر من الأتراك حيث كتب «إنَّ طريقة لبسهم ولُحاهم الطويلة تجعلهم أقرب إلى الشياطين منهم إلى البشر"
(Mather, the Glory of Goodness, 1995 :62).

فالنظرة الدونية أثرها عميقٌ في إيجاد الهوة في المجتمع، والإسهام في شرذمته وتقسيمه وإذكاء بؤر الصراع الموجود ، وإيجاد أخرى جديدة، أبرزها التعدي على حريات الغير الفكرية والشخصية وبث روح الشقاق والصراع في المجتمع الواحد والمجتمعات المتعددة.

ج- الإقصاء من الوظيفة العامة للكفاءات وتولية الأقل كفاءةً بسبب خطاب الكراهية المبني على الاستعلاء العرقي والطبقي: فأثر خطاب الكراهية يصل إلى فرص التوظيف، وتولية المناصب، فتجد شركات معينة تشترط أثناء التوظيف جنسيات بعينها بدلًا من خبرات معينة، وكأنَّ الجنسية هي التي ستقوم بأداء العمل لا مهارات الموظف نفسه، بل وصل أثر خطاب الكراهية المبني على الاستعلاء العرقي إلى اختلاف رواتب العاملين تبعًا لاختلاف جنسياتهم لا كفاءتهم، وهذه لوحدها كارثةٌ لما يترتب على المستوى النفسي للفرد وعلى المستوى الجماعي للمجتمع وما يسببه من فقد للقدرات والكفاءات ، فتجد راتب ابن البلد أضعاف راتب الأجنبي[1]، على الرغم من اجتهاد الأجنبي وإتقانه لعمله وأدائه لكل ما يُطلب منه على خلاف ابن البلد.

وزيادةً على ذلك نجد أثر خطاب الكراهية حتى في طلب العلم، وتحصيل المعرفة والتي هي جهدٌ عقليٌ بامتيازٍ لا علاقة للونٍ أو عرقٍ أو معتقدٍ بتحصيلها. ففي بعض الدول وبعضها للأسف دينها الإسلام تمنع غير المتجنّسين بجنسية ذلك البلد أو المولودين فيها، من دخول مدارسها وجامعتها.

فخطاب الكراهية المبني على الاستعلاء العرقي والطبقي يزدري الآخرين

(١) - أبرز مثال واضح دول الخليج العربي ..

لمجرد اختلافهم العرقي والطبقي، وأنَّ المناصب والوجاهة مختصةٌ بأسر بعينها ، ومحاولة تعزيز ذلك في النفوس أنَّ أسر معينة لها ميزة على غيرها من بني البشر، بل حتى النبوة والرسالة مبنية عندهم على معيار العرق والنسب ، وهذا الأسلوب استخدمه الكفار الأوائل في مناهضة دعوات الحق ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ سورة الزخرف :٣١. فهم لا يدينون إلا من هو من أشهر القبائل في أشهر القرى ؛ لأنَّ القرى هي مأوى شئون القبائل وتموينهم وتجارتهم ، والعظيم : مستعار لصاحب السؤود في قومه ، فكأنَّه عظيم الذات، وكأنَّ الرجلين اللذين عنوهما ذوا مالٍ، لأنَّ سعة المال كانت من مقومات وصف السؤدد كما حكي عن بني إسرائيل قولهم ولم يؤت سعة من المال. (ابن عاشور،٢٠١٠م:٣٢١)

إنَّ الهوى الطبقي، وهوَسْ الاصطفاء العرقي، وخطاب الناس على هذا الأساس يقود إلى تزييف الوعي، وهدم المجتمعات ، والاستغراق في تعظيم التاريخ العرقي الطبقي المصطفى على حساب الأمانة العلمية، والقدرات الإدارية والكفاءات الشخصية .

طرق تعامل القرآن الكريم مع خطاب الكراهية الناتج عن الاستعلاء العرقي والطبقي:

لم يكتف القرآن الكريم بسرد الأحداث، وبيان ادِّعاء الأفضلية من قبل البعض، بل سارع في تقديم العلاج من خلال الخطاب العقلاني، الذي يأخذ بالألباب والأفئدة، إلى طريق الحق والرشاد ومن ذلك :

١- التذكير بأصل الخلقة: فداءُ الكراهية المبني على العنصرية العرقية والطبقية، واجهه القرآن ببيان طبيعة الإنسان وحقيقته، ليدرك من خلالها مكانته في مسارات الحياة المختلفة، ومعاملاته مع بني جنسه، وإدراك هذه الحقيقة تعينه على التغيير الفكري لتصوراته، وتنقله من عادات الجاهلية، وخطابات الكراهية ،فبين القرآن الكريم أنَّ أصل البشرية واحدٌ قال تعالى:﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ

الَّذي خَلَقَكُم مِّن نَّفْس وَاحدَة وَخَلَقَ منْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ منْهُمَا رجَالًا كَثيرًا وَنسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذي تَسَاءَلُونَ به وَالْأَرْحَامَ ۚ إنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقيبًا﴾ سورة النساء:١.

بينت الآيات عددًا من الحقائق التي يلمسها الإنسان ويعايشها كل يوم، فأصل البشرية الذي صدر منه بنو البشر واحدٌ وهذا يقتضي عدم التفرقة، وعلى هذا يجب على الإنسان أنَّ يشكر الذي خلقه، ويراعي من سواه من بني جنسه سواءً الأرحام القريبة أو البعيدة ، وكذا الرفق بالضعفاء كاليتامى والنساء ، وإقامة العدل في القول والفعل بالتعامل مع الغير. (ابن عاشور،٢٠١٠م: ٢١٣/٤).

وافتتاح السورة الكريمة بهذا النداء الشامل لجميع المكلفين من وقت نزولها إلى أنَّ يرث الله الأرض ومن عليها، يدلُّ على عدم الاختصاص والتسوية بين بني البشر في التذكير والإنذار والتبشير.

فأنت تراها في مطلعها تحض الناس على تقوى الله والخشية منه، وتبيِّن الارتباط الإنساني الجامع الذي تلتقي عنده البشرية جميعًا قال تعالى: ﴿ يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُمْ منْ نَفْس واحدَة وَخَلَقَ منْها زَوْجَها وَبَثَّ منْهُما رجالًا كَثيراً وَنساء.. ﴾. وإذا كان الناس جميعًا ينتهون إلى أصل واحد، فإنَّ هذا الاتحاد يقتضى منهم أنَّ يكونوا متراحمين متعاطفين، ومن أبرز مظاهر التراحم، الأخذ بيد الضعفاء ومعاونتهم في كل ما يحتاجون إليه. (طنطاوي،١٩٧٧م: ١٩)

يقول ابن عاشور: ((وفي معاني هذه الصلات زيادة تحقيق اتصال الناس بعضهم ببعض، إذ الكل من أصل واحد، وإن كان خلقهم ما حصل إلا من زوجين فكل أصل من أصولهم ينتمي إلى أصل فوقه. وقد حصل من ذكر هذه الصلات تفصيل؛ لكيفية خلق الله الناس من نفس واحدة)). (ابن عاشور،٢٠١٠م: (٢١٦/٤))

وعلى هذا فكل إنسان يجب أنَّ تحترم آدميته فلا يجوز الاعتداء عليه وأذيته بدون وجه حق كما قال تعالى: ﴿ ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾ ، بل جعل

القرآن الكريم من اعتدى على نفس بالقتل فكأنَّما قتل الناس جميعًا قال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ سورة المائدة: ٣٢.

فالآية الكريمة تبين الترابط بين بني البشر، وأنَّ الإنسان الآخر هو نفس الإنسان المتكلم معه أو ضده، فالخطاب الموجه للغير موجه للنفس قال تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ سورة النور: ٦١.

يقول المفسرون: ليسلِّم بعضكم على بعضٍ، وليحيِّ بعضكم بعضًا تحيةً من عند الله مباركة طيبة.

لذا حين يدرك المتعصب هذه الحقيقة يلغي كل الفروقات التي تحمله على توجيه خطاب الكراهية نحوهم ، ويستبعد الصراع العنصري والطبقي الذي يتجرعه الإنسان بسبب لونه أو جنسيته . (الطبري ،القرطبي، الشوكاني : تفسير سورة النور آية ٦١).

ولاشكَّ أنَّ إشادة الإسلام بهذا المبدأ، وترسيخه في أذهان الأمم والشعوب، فيه دلالة على تكريم الإسلام للإنسانيَّة، يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ سورة الاسراء: ٧٠.

فالله سبحانه وتعالى كرَّم هذا الإنسان الذي ينتمي إلى هذه الأسرة البشرية التي تعيش على الأرض بغضّ النظر عن جنسه، ولونه، ودينه، ولغته، ووطنه، وقوميته، ومركزه الاجتماعي، ومن مظاهر هذا التكريم أيضًا خلق الله ﷻ الإنسان بقدرته، ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة بالسجود له، وسخَّر له ما في السماوات وما في الأرض جميعًا، وجعله سيِّدًا على هذا الكوكب الأرضي، واستخلفه فيه ليقوم بعمارته وإصلاحه، ومن أجل أنَّ يكون هذا التكريم حقيقةً واقعةً، وأسلوبًا في

الحياة، كفل الإسلام جميع حقوق الإنسان، وأوجب حمايتها وصيانتها، سواءً أكانت حقوقًا دينية، أو مدنيةً، أو سياسيةً.

٢- عمومية الخطاب القرآني وشموليته للناس كافة: الخطاب القرآني،خطاب لجميع أصناف المخاطَبين، على اختلاف أجناسهم، وأمْكِنَتهم، ومِلَلهم. فلم يجعل نداءه إلى فئةٍ دون فئة، أو جنسٍ دون جنس، أو أهل دينٍ دون غيرهم.

فالمتأمل في الخطاب القرآني، يجد أنَّ القرآن يدعو إلى المَطالب العالية، والفضائل السَّامية، والتَّشريعات الهادية الموجِّهة إلى كل خير للبشرية جمعاء؛ فنزعة الأفضلية بناءً على الخلقة غير موجودة ابتداءً، إذ الأصل واحدٌ،وليس لها اعتبارٌ في ميزان الله ، بل لمَّا طلبت قريش أنَّ يقفوا في الحج في مكانٍ خاص بهم من دون سائر الناس كما كانوا في الجاهلية قال الله لهم: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾سورة البقرة:١٩٩.يعني العرب وعامة الناس إلا قريشًا، وذلك أنَّهم كانوا لا يقفون بعرفات، وإنما يقفون بالمزدلفة،ويقولون نحن أهل حرم الله فلا نخرج منه، فأمرهم الله أنَّ يقفوا بعرفات كما يقف سائر الناس حتى تكون الإفاضة معهم منها.(الواحدي،١٩٩٤م: ٢٦٠)

فالمساواة بين البشرية في الخطاب والتكاليف بناء على أصلهم الواحد ، والاختلاف الذي نشأ في الأعراق والألوان والألسن ، الأصل يقود إلى التعارف لا التناكر قال تعالى:: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾سورة الحجرات: .

ولذا فإنَّ الله لا يضيع عمل عامل مهما كان شأنه ، قال عزوجل: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ سورة آل عمران:١٩٥.

فالجميع أمام الشريعة سواء؛لذا استوعب الخطاب القرآني كل البشر،

والصبغة العامة للخطابات القرآنية هي العمومية والشمول في الغالب، فهو يخاطب العقلاء جميعًا من دون استثناء أو تمييز، من دون التعرض لأعراقهم أو غيرها من أنواع العنصرية ، بل نجده يتخطى أفراد الناس و يوجِّه خطابه الى الجن أيضًا في آيات عديدة ، فالقرآن الكريم كتابٌ منزل إلى العالمين الذي هو أعم من الناس قال الله جَلَّ جَلالُه : ﴿ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ × وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ سورة القلم الآية: ٥١و٥٢. وقال تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ سورة التكوير الآية: ٢٧.

فالرسول ﷺ مبعوثٌ إليهم جميعا ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾سورة الأعراف. ١٥٨ ، ليستوعب في عمومه عامة الجماهير، ويدخل في مضمونه أكثر المخاطبين، ويضم بشموله سائر المدعوين، وبذلك يستطيع الخطاب أنَّ يكون مقبولًا يسع الناس، ولا ينحجر على فئة، أو ينغلق بمجموعة.: فالعالَمُ : الخَلْق كلُّه ، و قال الزجاج : معنى العالمينَ كل ما خَلق الله ، كما قال : و هو ربُّ كل شيء،و هو جمع عالَم،(ابن منظور،١٩٧٩م: ١٢ / ٤٢١) ، والآيات الدالة على عمومية القرآن الكريم و الرسالة الإسلامية و أنَّها غير مختصة بمكان أو زمان معين أو فئة و جماعة خاصة كثيرة ومتنوعة الخطاب والأسلوب.

فخطاب الكراهية المبني على الخلقة والمظهر الخارجي وما يتبعه من مال وجاه ..:خطاب لا صلاحية له عاقبه الشارع بالتبكيت والتذكير بأصله. ولم يميزه بخطاب شرعي دون غيره .

المبحث الثالث
خطاب الكراهية بدافع المعتقد والفكر

من دوافع تبني خطاب الكراهية، ما يظن البعض بأنَّ معتقده هو أهدى وغيره هالك لا محالة، وفكره أصحُّ تصورًا بينما غيره أعمى، وفي الحقيقة فإنَّ صاحب العقيدة السليمة، والفكر الصائب، يحمل معاني الخير قولاً وعملا، فيخاطب غيره بالحسنى رجاء أنَّ يؤمن بما يعتقد، ويعامله باللين ، وهذا شأن معتقد الحق تجاه الآخرين .

أما غيره فهو ينظر إلى الآخر، بأنَّه أحطُّ منزلةً، وأقلُّ شأنًا، بسبب مخالفته عقديًا وفكريًا ، فيحمل خطابًا يقوم على الازدراء والسخرية من مخالفيه، ويتهمهم بالتخلف والرجعية، ويستخدم أحيانًا مصطلحات تسحر العقول، وتسبي الألباب منها كالحرية والمساواة، والديمقراطية، وحقوق الإنسان وغيرها من الألفاظ التي تسوق لمشاريعهم، وتأسر من يسمعها بمصطلحاتها، وهي خاوية المضمون قائمة على غير أسس، فهي تدعو إلى الحريات وتنادي بها، لكن في الحقيقة الحرية المسموح بها هي ما تخدم الفكر الاستعلائي حرية لطرفٍ واحدٍ وفكرٍ واحدٍ ومنهجٍ واحدٍ، وغيرها تكيل لها التهم بالإرهاب والتخلف والتشويه بصورٍ عدةٍ ، وتستجلبٍ أخطاء الماضي لتعكّر رؤية المستقبل .

أصحاب هذا الفكر من خلال خطابهم، يعتقدون أنَّهم الوحيدون الممتلكون للحقيقة وما سواهم ضالٌ وشاردٌ،وتظهر هذه الطائفة أنَّها تريد تحقيق مصلحة الناس، فتتودد لهم لتأخذ ولاءهم، وتسحبهم للدوران في فلكها لكن في الحقيقة تصدهم عن الحق .

لقد نبه القرآن الكريم عن هذه الظاهرة في عدة مواضع ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ سورة البقرة: ١١ .

الاستعلاء الفكري، والتمركز الديني، يُنشئ تطرفًا لدى بعض الطوائف

والملل، فتعتقد أنَّها الفرقة الناجية وغيرها هالك، ومن ثَّم يتولد خطاب الكراهية قال الله عن اليهود : ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ سورة المائدة: ١٨. فزكوا أنفسهم وتفاضلوا باعتقادهم ،﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ سورة البقرة: ١٣٥.

وبغض النظر عن ماهية المعتقد الذي يعتنقه الإنسان، وما يتولد عنه من صورٍ وأفكار، فإنه لا يعطي لصاحبه الحق في ازدراء الآخرين واستنقاصهم ، فالفكر السليم والمعتقد الحق هو الذي يحمل صاحبه على حسن القول، وطيب الكلمة، واتزان اللفظ ومراعاة مشاعر الآخرين، وتقدير منازلهم؛ ولذا نجد أنَّ القرآن الكريم يبيِّن ذلك في كثيرٍ من الآيات: فموسى عليه السلام بعثه الله إلى فرعون برغم طغيانه إلا أنَّه أمره بأنَّ يلين القول ويحسن التخاطب فقال تعالى:
﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ سورة طه: ٤٣-٤٤.

وفي قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه نجد أرقَّ الخطاب، وأعذب الألفاظ يستخدمها في دعوته إلى الهدى والرشاد ﴿..... يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ سورة ابراهيم :٤٢-٤٥ بل لمَّا وجد غلظته واستكباره: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ سورة ابراهيم:٤٦.قرر اعتزاله بلطفٍ وحب: ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ سورة ابراهيم: ٤٧.

بينما نجد المتطرف لا يرى إلا نفسه ، فيُكفِّر ويُفسِّق ويُبدِّع ويُجرِّم أبناء ملته ودينه، مترادفات ألفاظه تؤدي إلى الازدراء واستنقاص الآخر.

خطاب الكراهية المبني على المعتقد والفكر يؤدي إلى عدم العدل في الخطاب والتعامل، فينكر ما عند الآخر من خير ، ونسف كل ما يمتُّ لهم بصلة ، كما حكى القرآن الكريم عن اليهود والنصارى، فكلٌ منهم ينفي ما عند الآخر، ويحرِّض عليه

قال تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ سورة البقرة:١١٣.

وكاستنقاص فرعون المعتقد الذي يدعو إليه موسى عليه السلام، وازدراء الدين الذي يحمله، والتحريض عليه بدعوى حرصه على مصلحة قومه، وصيانةً لأفكارهم: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ سورة غافر:٢٦.

فاستخدام خطاب الكراهية المبني على المعتقد ضدَّ أيِّ فكر مغاير لما هم عليه سنةٌ جاريةٌ بين المتطرفين والغلاة : ﴿ قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ سورة ابراهيم:١٠ .

إذ إنَّ أفق الغالي يمنعه استيعاب الفكر الآخر، ناهيك عن مواجهته بالحجة والبرهان .

والقرآن يتعامل مع هذه القضية بتوازن عالٍ، ودقةٍ متناهية، وأسلوبٍ حكيمٍ من خلال الآتي:

١- عدم الإكراه في الفكر والعقيدة ابتداءً: فالقرآن الكريم تضمن كل صور التسامح والحرية، ليواجه من خلال ذلك كل صور التعصب والغلو، فالإسلام الذي يحمل القرآن الكريم تعاليمه، جاء ليواجه كل صور التعصب و الغلو في أمور العقيدة والشريعة، والسلوك والمفاهيم، ووجه إلى طرق الهداية، وتقبل الآخر بتقبل التعامل مع الآخرين بتسامح ورحمة، والإيمان بحق الاختلاف في الفكر والعقيدة، وألا تصادر حريات الآخرين، قال تعالى: ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سورة البقرة:٢٥٦.

((ونفي الإكراه خبر في معنى النهي، والمراد نفي أسباب الإكراه في حُكم الإسلام،

أي لا تكرهوا أحدًا على اتِّباع الإسلام قسرًا، وجيء بنفي الجنس لقصد العموم نصًا.

وهي دليلٌ واضحٌ على إبطال الإكراه على الدِّين بسائر أنواعه؛ لأنّ أمر الإيمان يجري على الاستدلال، والتمكين من النظر، وبالاختيار"..(ابن عاشور، ٢٠١٠م: ٣/ ٢٦).

قال سيد قطب رحمه الله: " والتعبير هنا يرد في صورة النفي المطلق: ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ نفي الجنس كما يقول النحويون.. أي نفي جنس الإكراه. نفي كونه ابتداءً. فهو يستبعده من عالم الوجود والوقوع. وليس مجرد نهي عن مزاولته والنهي في صورة النفي - والنفي للجنس - أعمق إيقاعًا وآكد دلالة" (سيد قطب ،٢٠٠٤م: ١/ ٢٩١).

ولم يثبت أنَّ النبي ﷺ أكره أحدًا على الدين بل ثبت عكس ذلك، وهو أنَّ بعض الأنصار أراد أنَّ يكره ولده على الإسلام فنهاه النبي ﷺ عن ذلك.(مناقشة بين مجموعة من رجال الفكر من الديانتين الإسلامية والنصرانية،١٤٠٧هـ: ٣٣٧).

فحريَّة الاعتقاد أبرز حقوق الإنسان التي أقرَّها القرآن الكريم، والقرآن الكريم يؤكد حق الإنسان في اعتناق العقيدة التي يشاء: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ سورة الكهف: ٢٩، ويوجه رسوله الكريم إلى ترك حريَّة اختيار العقيدة للإنسان؛ بعد أنَّ يوضح له طريق الحق والخير ويقول له: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ سورة يونس: ٩٩. فعلى حاملي خطاب الكراهية بأيِّ صورة من الصور، أنَّ يدركوا بأنَّ العقائد لا تعتنق بالإكراه، ولا تنتشر بين الناس بالفضاضة، والغلظة، وحدة القول، وذلك أمرٌ مقررٌ في أصول الشريعة واستقراء تاريخ البشرية يؤكد ذلك .

٢- الدعوة إلى المعتقد بالحسنى: فمن يعتقد أنَّه يحمل منهجًا سليمًا ويسير طريقًا مستقيمًا فلا حاجة له بخطاب الكراهية وأساليب العنف، قال تعالى: { ادْعُ

إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} سورة النحل: ١٢٥،والآية فيها من الوضوح ما يغني عن نقل أقوال المفسرين والعلماء ، فالحق لا يعرف برفع الصوت أو نبرة الكلمة وحدتها . ناهيك عن تخويف الناس ، وإخضاعهم لاعتناق المعتقد بالقوة، بل تبرهن الآية على احترامه لعقل الإنسان وإرادته واختياره، وتحديد هويته الدينية، فالدعوة إلى الإسلام تقوم على الاقتناع التام بالعقدية الإسلامية، ومنهجها ووسائلها .

بل بيَّن القرآن الكريم وظيفة الأنبياء بالبلاغ المبين بالحجة الظاهرة، التي تخاطب العقل والروح ،فليسوا مسئولين عن هدايتهم واعتناقهم للدين واعتقادهم الحق، فالمهمة هي البلاغ والإرشاد بالحسنى، قال تعالى:﴿ فإنَّ أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ ﴾ سورة الشورى: ٤٨.

وهذا يؤكد معاني الحريَّة التي خلق الله الإنسان بها ، فلا يمكن لأحد مهما ادَّعى من حق أنَّ يسلبها منه، فالعلاقة التي يريد أنَّ يبنيها الإسلام علاقةٌ مباشرةٌ بين الإنسان وربه من غير واسطة أو تدخُّل من أحد مهما كانت منزلته، سواء أكان ملكًا أو نبيًّا أو غير ذلك، قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ﴾ سورة الغاشية: ٢١، ٢٢. يقول: إنما أرسلتك إليهم مذكرًا لتذكرهم نعمتي عندهم، وتعرفهم اللازم لهم، وتعظهم. وقوله:﴿ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ﴾ يقول: لست عليهم بمسلَّط، ولا أنت بجبَّار تحملهم على ما تريد. يقول: كلهُم إليَّ، ودعهم وحكمي فيهم . (الطبري ،٢٠٠٥م: ٢٤ / ٣٨٩).

٣- الإقرار بالتنوع العقدي والفكري : ذلك أنَّ الله ﷻ خلق الخلق بحكمته ولغاية أرادها ، فالاختلاف كائنٌ وباقٍ إلى أنَّ يرث الله الأرض ومن عليها قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ سورة التغابن: ٢. وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ

جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ سورة يونس: ٩٩. صرَّح تعالى في هذه الآية الكريمة أنَّه لو شاء إيمان جميع أهل الأرض لآمنوا كلهم جميعًا، وهو دليلٌ واضحٌ على أنَّ كفرهم واقعٌ بمشيئته الكونية القدرية، وبيَّن ذلك أيضًا في آيات كثيرة،(الشنقيطي، ١٩٩٥م:٢/١٢٥)، كقوله تعالى: ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ سورة الكهف: ٢٩. أي: لم يبق إلا سلوك أحد الطريقين، بحسب توفيق العبد، وعدم توفيقه، وقد أعطاه الله مشيئةً بها يقدر على الإيمان والكفر، والخير والشر، فمن آمن فقد وفِّق للصواب، ومن كفر فقد قامت عليه الحجة، وليس بمُكره على الإيمان.(السعدي، عبدالرحمن،٢٠٠٥م:٤٧٥).

ووجه القرآن الكريم النبي، وحملة الحق إلى التعامل مع الواقع العقدي والفكري، بحسب ما يقتضي من حسن خطاب، وتصرف قائم على التعايش، وسلوك الحوار والجدال بالتي هي أحسن، قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ سورة آل عمران: ٦٤. وقال تعالى: ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ سورة العنكبوت:٤٦. فخطاب الكراهية يحتقر المخالف و يفوِّت الحقَّ، ويبغِّض الخير إلى قلوب الناس ، ويحمل على العناد والإصرار على ما يعتقد المرء، وإن كان غير محق.

لقد أمر الإسلامُ أتباعَه بالتعامل بحسن الخطاب مع غير المسلمين ومراعاة مشاعرهم، قال عز وجل: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ سورة الأنعام: ١٠٨ ، نهيٌ صريحٌ عن النيل من الآلهة التي يعبُدها المشركون من الوثنيين والبوذيين ؛ يقول الإمام القرطبي عند تفسير هذه الآية

الكريمة: لا يَحِل لمسلم أنَّ يَسُب صُلبانهم، ولا دينهم، ولا كنائسهم، ولا يتعرَّض إلى ما يؤدِّي إلى ذلك؛ لأنه بمنزلة البعث على المعصية .(القرطبي،٢٠١١٥م: ٦١/٧) .

فإذا كان القرآن الكريم يدعونا إلى الجدال بالتي هي أحسن مع المخالف، وينهى عن الإكراه، ويقرُّ بالتنوع مع المخالف بالدين والمعتقد، فمن باب أولى من يخالف بالرأي من أهل الملة، فحسن خطابهم، ولين الجانب معهم ، والعذر لآرائهم في أقوالهم وأفعالهم من حسن الخطاب، وسعة الفكر، وسلامة الرؤية، والبصيرة.

وقد وقع الخلاف في فروع العقيدة والفقه من زمن الصحابة ﷺ قال ابن تيمية: وما زال السلف يتنازعون في كثيرٍ من هذه المسائل ولم يشهد أحدٌ منهم على أحدٍ لا بكفرٍ ولا بفسقٍ ولا بمعصيةٍ، كما أنكر شريحٌ قراءة من قرأ (بل عجبتُ ويسخرون) وقال: إن الله لا يعجب، فبلغ ذلك إبراهيم النخعي، فقال: إنما شريح شاعر يعجبه علمه، كان عبد الله أعلم منه وكان يقرأ (بل عجبتُ) وكما نازعت عائشة وغيرها من الصحابة في رؤية محمد ربه وقالت: من زعم أنَّ محمدًا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية،(الحاكم ،١٩٩٠م:٣٦٠٨) ، ومع هذا لا نقول لابن عباس ونحوه من المنازعين إنَّه مفترٍ على الله، وكما نازعت في سماع الميت كلام الحي، وفي تعذيب الميت ببكاء أهله وغير ذلك. (البخارى،١٤٢٢هـ: ٣٢٣٤).، وقد آل الشر إلى الاقتتال مع اتفاق أهل السنة أنَّ الطائفتين جميعًا مؤمنتان، وأنَّ الاقتتال لا يمنع العدالة الثابتة لهم؛ لأنَّ المقاتل وإن كان باغيًا فهو متأول، والتأويل يمنع الفسوق، ومع هذا؛ فما أوجب هذا النزاع تهاجرا ولا تقاطعا .وكذلك ناظر الإمام أحمد أقوامًا من أهل السنة في «مسألة الشهادة للعشرة بالجنة» حتى آلت المناظرة إلى ارتفاع الأصوات، وكان أحمد وغيره يرون الشهادة، ولم يهجروا من امتنع من الشهادة، إلى مسائل نظير هذه كثيرة.")(ابن تيمية،١٩٩٨م:٦/ ٥٠٢).

واذا كان هذا هو قول العارفين في هذا الباب من مسائل العقيدة التي ولج منها بعض الجهال للتكفير والتبديع لمن خالفهم، فما بالكم بالمسائل الحادثة التي اختلفت فيها الأنظار، وتنوعت أقوال أهل العلم، فهذا النوع من الاختلاف غيرُ مذمومٍ، بل

هو باب من أبواب البحث والتأمل ، يؤجر صاحبه ويثاب على ما بذل من جهد في تحرِّي الحق والوصول إليه، كما قال ﷺ: « إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ » متفق عليه. (البخارى،١٤٢٢هـ:٧٣٥٢ ،مسلم،٢٠٠٢م : ٤٥٨٤).

وقد كان خلاف الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم من الأئمة الأعلام، من هذا النوع، فلم يوجب فسقًا ولا بدعة، بل كان بعضهم يعذر بعضًا، ويكرمه ويجله من غير أنَّ يكون خلافهم بابًا من أبواب الكراهية ،ومدخلًا للتطرف والغلو.

٤- اثبات الادِّعاء بالحجة: هناك من يظن أنَّ رفع الصوت وسيلةٌ لاعتناق الأفكار، والتحريض ضد الآخر طريقٌ لإقصائه في الحياة، وعلو فكره ومعتقده .

بينما نجد القرآن الكريم يؤكد على الحجَّة والبيِّنة ، وأنَّ الخطاب الذي لا يقوم على دليل وبرهان لا قيمة له ، بل ويواجه كل ادِّعاء باطل يحمل في طياته خطاب الكراهية والازدراء للغير صراحة أو ضمنًا، بدعوته بكل هدوء إلى تقديم دليله وبرهانه، قال تعالى عن أنموذج من هذا الصنف: ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ سورة البقرة:١١١.

وقال تعالى : ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ سورة الأنبياء: ٢٤.

فرغم وضوح منهجهم الباطل، وعقيدتهم المنحرفة إلا أنَّه طالبهم بالدليل على اعتقادهم، ولم يستخدم لغة التحريض ضدهم، إذ إن اللغة المستهجنة لا تثبت حقًا ولا تردع باطلًا.

٥- فتح باب الحوار والنقاش وعدم احتقار الحقيقة: فالغالي والجافي يحتقر الحقيقة، ويظنُّ أنَّه صاحبها؛ ولذا فالآخر متهمٌ بالانحراف واقعٌ في المعصية أو الكفر، خارج عن سواء السبيل، وهذا ناتج عن التعصب الفكري والنظرة

الاستعلائية، التي ذمها القرآن الكريم وحذر منها، ووجه أصحاب الحق وحملة الخير إلى الحوار مع الآخر والجدال دون استعلاء، أو نبرة تحد أو محاولة إفحام الخصم، والنأي بالنفس عن الطعن بالآخرين والسخرية والإثارة والاستفزاز والاحتقار، فوجه نبيه ﷺ ، إلى الابتعاد عن التعنيف في الردّ على أهل الباطل، فقال تعالى: ﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٨) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ سورة الحج : ٦٨-٦٩ .

ومع أنَّه الوحي المنزَّل على سيد البشر الصادق الأمين، فيتطلب الحوار إلى احترام حق الآخر في الدفاع عن معتقداته واجتهاداته وأفكاره .وقوله : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾سورة سبأ: ٢٤ ، مع أنَّ بطلانهم ظاهرٌ، وحجَّتهم داحضةٌ، ثم تأتي الآية التالية لتؤكد الأدب الرفيع في التعامل مع المخالف، والابتعاد عن خطاب الكراهية والإسفاف في القول : ﴿ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ سورة سبأ: ٢٥ .

فعدم الوصاية على الحقيقة هو الأصل، وبيان المسؤولية الفردية في الاختيار دون إكراه الآخرين، هي التي بينها القرآن ونبَّه عليها، فقال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ سورة يونس:١٠٨.

فإغلاظ القول ، وانتفاخ الأوداج ، لا يولِّد إلا غيظًا وحقدًا وحَنَقًا، فما يقوِّي الحجة هو الدليل وإقامة البرهان ، والفكر المنظَّم والنقد الموضوعي.

المبحث الرابع
خطاب الكراهية بناء على الأحكام المسبقة

من أسباب ظهور خطاب الكراهية تجاه الآخر، هي الأحكام المسبقة، المبنيَّة على خلفيات قديمة، وتصرفات مضى عليها الزمن؛ لذا فالحكم المسبق هو شعورٌ تجاه الآخر، يتشكل بصورة رأيٍ، أو فعلٍ يقوم على قوالب جاهزة، يبلوِّر تصورات ثابتةً تجاه الأفراد والجماعات والبلدان، وغيرها، وعليه تزيد وتيرة العنصرية، ويرتفع منسوب خطاب الكراهية .

الأحكام المسبقة على الآخر: ظاهرةٌ اجتماعيةٌ خطيرةٌ أساسها الحقد، و الحسد، و البغضاء، أو الجهل والتسرُّع والطيش، مبنيَّة على سوء الظنِّ بالآخر، والنظر إليه كمجرم أو على باطل، بناءً على الحكم المسبق ، ومن ثمَّ تترب عليه التصرفات القولية والعملية، دون أدنى استماع، أو تبين وتثبت لحاله، بل استهدافه بخطاب الكراهية المشتمل على كل أنواع الازدراء والتهميش والإقصاء .

أسباب إطلاق الأحكام المسبقة على الآخر:

١- الوهم والظنُّ أساس المواقف والأحكام المسبقة، بمن يصبُّ عليهم نار الكراهية القولية والفعلية، فالحسُّ والخيال ،هما الحاكمان، يستقي العقل مادته ، ويصور أفكاره، قال تعالى منبهًا لنبيه ﷺ عن هذ الصنف وعلى ما يستندون وماذا سيترتب على اتِّباعهم : ﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ سورة الأنعام:١١٦.

فنتيجة سوء الظنِّ، يطلق خطاب الكراهية، رؤية سوداوية على المجتمع ، أوضح لنا النبي ﷺ ذلك بقوله: (إذا قال الرجل :هلك الناس فهو أهلكهم)،(مسلم ،٢٠٠٢: ١٣٩). فبين النبي ﷺ أنَّ من انتهى أمره، هو من ساء ظنُّه بالآخرين واستخدم هذا الخطاب.

ومن نتائج سوء الظنِّ: أنَّه يورث صاحبه الأنانيَّة، ومركزيَّة الذات، فيربط

كل شيءٍ بنفسه، ويعدُّ كل ما في الحياة من أفكار وقيم وإبداع منسوبة إليه، كما أنَّ من حقه تجاه الآخرين أنَّ يوبخهم ، ويُكبِّر أخطاءهم ، ويستخفَّ بما يقومون به من عمل أيًّا كانت ثمرته .

٢- القصور العلمي والمعرفي، والاهتمام بالشكل ، بدل المعنى الحقيقي القائم على الدليل والبرهان، وهذا ناتج عن ثنائية الجهل والعلم، فكلما ازداد الإنسان علما ازداد ازدراء لنفسه ومعرفةً بقصوره، فهو يدرك في كل بابٍ من أبواب المعرفة يلجه أبوابًا أخرى، وكلما ارتقى درجًا في سلَّم العلم رأى مساحاتٍ شاسعةً لم يبلغها وعلومًا لم يحرزها، فيرجع إلى نفسه يصلحها ويهذبها، وينظر إلى الآخرين فيعذرهم ويحسن الخطاب معهم مستشعرًا، قوله تعالى : ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾ سورة الإسراء: ٨٥، أما الجاهل فإذا اكتسب معرفةً تمسك بظاهرها ووقف عندها، وظنَّ أنَّه حاز علم الأولين والآخرين، فيشنِّع على المخالف بالكفر والفسوق والبدعة ، وينظر إلى غيره بازدراء وتحقير، ويقف عند القشور والمظاهر، ويحكم على الناس من خلالها، فيصدر الأحكام، ويوزع الناس إلى أتقياء وفجار حسب معاييره وأسسه التي ركبها جهله، فهذا الصنف كالخوارج الذين وصفهم النبي ﷺ بقوله : «يأتي في آخر الزمان قومٌ حدثاء الأسنان سفهاء الأحلام يقولون من خير قول البريَّة يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرميَّة». (البخاري ،١٤٢٢هـ : ٣٦١١) ومسلم،٢٠٠٢م: ٢٤٦٢: ١٥٤).

فدل الحديث أنَّهم صغار العقول والتفكير، ليست لهم تجارب، ولا سابق علم ومعرفة، قال النووي: ((يستفاد منه أنَّ التثبت وقوَّة البصيرة تكون عند كمال السنِّ وكثرة التجارب وقوَّة العقل)). (ابن حجر،٢٠١٩م: ١٤/ ٢٣٠)

فالحكم على الشيء بدون الإحاطة به ،وإدراكه من جميع جوانبه، يجعل المتصدر له يتخبط في أقواله وأفعاله، وفي قصِّة موسى مع الخضر عليهما السلام □□□□□□□□ ما ينبه إلى ذلك ويوضِّحه : ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ سورة الكهف: ٦٨..

وفي عصر الوسائل الحديثة، ومنها وسائل التواصل الاجتماعي، وانتشار المعرفة من خلالها، والتي في الأصل توصل للإنسان المعلومة بيسرٍ وسهولة، إلا أنَّها -للأسف- استُعملت من قبل بعض الفئات في عولمة الأحكام الجاهزة ونشرها على نطاقٍ واسع، وتقديم التأويلات للأحداث، والحالات الفردية والجماعية بما يوافق أفهامهم وأفكارهم.

٣- المواقف والتجارب السابقة: من أسباب تكوين الأحكام السابقة، ما تنتجه المواقف السلبية التي تعرَّض لها الإنسان، أو تجربة شخصية مرَّ بها، جرت بين أشخاصٍ من بلد ما، أو تيارٍ سياسي ما، أو دينٍ ما، أو عرقٍ ما فيكوِّن انطباعًا عامًا على البلد بأكمله، أو التيار السياسي بأجمعه، أو المعتقد بكل معتنقيه،ويتمُّ تداولها بعد ذلك على أنَّها طبعٌ واحدٌ، وإرثٌ سلوكيٌ واجتماعيٌ لا يتغير ولا يتبدل، والقرآن الكريم ينبِّه على هذا السلوك المشين، وعدم اجترار سلوك الكراهية بحسب الحكم المسبق، فقال تعالى : ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ سورة الأنعام :١٦٤.

بل التربية العملية ليونس عليه السلام بعد أنَّ يأس من قومه، ودعا عليهم بالهلاك، وخرج غاضبًا منهم، وحمل في نفسه أنَّه لا يؤمن أحدٌ منهم ،بناءً على تجربته السابقة معهم: ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ سورة الأنبياء:٨٧. فأنجاه الله من الهلاك بتسبيحه، ثم أرسله فكانت النتيجة خلافًا للحكم السابق: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ سورة الصافات:١٤٧-١٤٨.

تعامل القرآن الكريم في التعامل مع خطاب الكراهية المبني على تبني أحكام مسبقة:

١- نهيٌ عن سوء الظنِّ بالآخرين: قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ سورة الحجرات:١٢وقال: ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ

وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ سورة النجم:٢٨. وكلَّما تخلى الإنسان عن سوء الظنِّ، استطاع أنَّ يتفاعل إيجابًا مع الحياة، وما تحمله من معاني، وأبرز جمالها العلاقات الإنسانية المبنية على الاحترام والتعايش والمودة والرحمة، واعذار المخالف.

٢- الإعراض عن الكلام الباطل : قال تعالى :{ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا } سورة الفرقان: ٦٣، ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾، يقول ابن كثير رحمه الله: إذا سَفه عليهم الجُهَّال بالسيئ، لم يُقابلوهم عليه بمثله، بل يَعفُون ويصفحون ولا يقولون إلا خيرًا، كما كان رسول الله ﷺ لا تَزيده شدة الجهل عليه إلا حلمًا،(ابن كثير،١٤٠١هـ:٣/١٣٥). وكما قال عز وجل : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾سورة القصص: ٥٥.

٣- مخاطبة الناس بالظاهر من أقوالهم وأعمالهم : قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا...سورة النساء: ٩٤.

بل أمر القرآن الكريم بالقول الحسن والبعد عن الفضاضة : ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴾ سورة الإسراء: ٥٣ ، فيُبيِّن الله جَلَّ جَلَالُهُ للنَّاس أنَّ الشيطان يتربَّص بهم الدوائر، ويتمنَّى أنَّ يَنزغ بينهم، ويجعلهم عُرْضة للخصام والجدال والسِّباب والقتال، فالقول الحسن - الذي هو أصل التعامل وأساسه - يُسبِّب الألفة والمحبَّة، ويُعقب الرحمة والمودة في القلوب والصدور، ويقول - عز وجل -: ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ سورة البقرة: ٨٣، ففي هذه الآية الكريمة قدَّم الله تعالى القولَ الحَسَن للناس على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فمتخذو المواقف المسبقة حرموا عقولهم من لذة المعرفة والاكتشاف، ودخلوا دائرة الشك والأوهام، ووقفوا على شفا جرف هار، وأصبحوا أسرى المواقف المحفوظة في أذهانهم والتجارب الواحدة التي لا تتغير، فتزعموا خطاب الكراهية بناء عليها.

نتائج البحث

وختامًا: نحمد الله أولًا وآخرًا، على تيسيره وعونه، فهو صاحب الفضل والجود والكرم، كما تُلخِّص أهم نتائج البحث فيما يلي:

١- خطاب الكراهية نابعٌ من أصلٍ نفسي فاسد الاعتبار في ميزان الشريعة الإسلامية المبنية على أصولٍ راسخةٍ في العلاقة بين بني البشر أبرزها التعارف، التعاون، التكامل.

٢- يتنوَّع خطاب الكراهية بتنوُّع الأساس الذي انطلق منه، فالعرق واللون والمعتقد والتصور، والتجارب والمواقف السابقة. منطلقات رئيسة لخطاب الكراهية.

٣- يتميَّز خطاب الكراهية بالأنا، والتمركز الذاتي من قبل صاحبه، والنظرة الدونية والازدراء تجاه الآخر.

٤- من آثار خطاب الكراهية، إغلاق أبواب الحوار والتفاهم، ناهيك عن التعاون والتكافل مع الآخر.

٥- تعامل القرآن الكريم مع خطاب الكراهية من خلال فتح باب الحوار، والنقاش مع المخالف أيًّا كانت مخالفته، وكذا الدعوة إلى التعاون، والتكافل بين بني البشر، والتأكيد على أهمية المودة، وحسن القول والظن.

التوصيات

في ضوء مضامين البحث ونتائجه يوصي الباحث بما يلي:

١- إقامة الندوات والمؤتمرات المفتوحة التي تعني بتنمية النقاش والحوار والتدريب عليه.

٢- تعويد النشء ابتداءً من المدارس الابتدائية على تقبل الآخر، وحسن الخطاب مع المخالف، وعدم احتقار الآراء من خلال مناهج دراسية نظرية وعملية مصاحبة .

٣- محاربة الإكراه وما يترتب عليها من تبني الآراء الوحيدة وإجبار الناس عليها فقهًا وفكرًا وثقافةً وسياسيةً .

٤- استهداف أصحاب الفكر المتطرف وحاملي خطاب الكراهية من خلال المراكز البحثية، ومحاولة التقليل من آثارهم من خلال توسع الأنشطة المضادة لهم القائمة على استيعاب الآخر وتنوُّع الفكر .

والحمد لله رب العالمين،،،

المصادر والمراجع

١-ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ،مجموع الفتاوى ،دار الكتب العلمية،ط٢.

٢-ابن حجر؛ أحمد بن علي بن حجر ،(١٩٩٨) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، دار الحديث القاهرة ، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ.

٣-البخاري؛ محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي،(١٤٢٢هـ) صحيح البخاري ، الجامع الصحيح المختصر، تحقيق، محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) الطبعة: الأولى.

٤-ابن عاشور، محمد الطاهر (٢٠١٠) التحرير والتنوير، وزارة الثقافة والمحافظة على التراث .

٥-ابن منظور، محمد بن مكرم بن على أبو الفضل (١٩٧٩)، لسان العرب، مكتبة دار المعارف، بالقاهرة. .

٦-الحاكم ؛ محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري،(١٩٩٠) المستدرك على الصحيحين ، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى - تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا.

٧-الزركلي،خير الدين)١٩٨٤) الأعلام ، ط ٥ ، بيروت ، دار العلم للملايين .

٨-السعدي، عبدالرحمن،(٢٠٠٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان .

٩-سيد قطب ،(٢٠٠٤) في ظلال القرآن، دار الشروق .

١٠-الشوكاني، محمد بن علي (١٩٩٧)، إرشاد الفحول إلى تحقيق علم الأصول ،مؤسسة الكتب الثقافية، الطبعة السابعة.

١١-الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر،(١٩٩٥)، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، المؤلف: الجكني (المتوفى: ٥١٣٩٣)، الناشر: دار

الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان.
١٢-القرطبي ،أبوبكر (٢٠١٧) الجامع لأحكام القرآن، دار الفكر .
١٣-المحنك، هاشم حسين ناصر ،(٢٠٠٨)، موسوعة المصطلحات الإدارية والاجتماعية والاقتصادية والتجارية.
١٤-الواحدي،(١٩٩٤)، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، دار القلم-دمشق.
١٥-الياس انطون الياس(١٩٧٢)، قاموس الياس العصري، دار الجليل، بيروت.
١٦-أيمن صالح،(٢٠٠٥) تلقي النص الديني، إسلامية المعرفة، السنة العاشرة، العدد٤٠.
١٧-جبران مسعود (١٩٦٥) معجم الرائد .
١٨-حوار الحضارات - دمشق -دار الينابيع .
١٩-ريتشارد فيكارتص،(٢٠١٧م) ، من داروين لهتر ، -١٨مارس على موقع ةاي باك مشين.
٢٠-طنطاوي، محمد سيد ،(١٩٧٧) الوسيط في التفسير. مطبعة السعادة.
٢١-عمر كوش،(٢٠٠١) - مجلة الآداب - العدد ٤٨.
٢٢-على الدين هلال، نيفين مسعد محرران، معجم المصطلحات السياسية القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية، ١٩٩٤.
٢٣-مجمع اللغة العربية (١٩٦٠)المعجم الوسيط - بالقاهرة.
٢٤-مجمع اللغة العربية، المعجم الوجيز القاهرة: دار التحرير للطبع والنشر، ١٩٨٠.
٢٥-مجموعة من المؤلفين(١٩٩٤) (مجمع اللغة العربية)، المعجم الوجيز، الناشر :م وزاره التربية والتعليم -مصر .
٦٢- محمد الباشا،١٩٩٢)، الكافي معجم عربي حديث، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت.

٢٧-مجدي وهبة، كامل المهندس (١٩٨٤) ، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان ساحة رياض الصلح، بيروت، الطبعة الثانية.
٢٨-مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، المسند الصحيح المختصر ، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
٢٩-ممد رواس قلعه جي/ حامد صادق ،(١٩٨٥) معجم الفقهاء.
٣٠-مناقشة بين مجموعة من رجال الفكر من الديانتين الإسلامية والنصرانية،(١٤٠٧هـ)، مناظرة بين الإسلام والنصرانية، طبْع ونشْر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الإدارة العامة للطبع والترجمة، الرياض، المملكة العربية السعودية.

المراجع الاجنبية:

31-From Joel Barlow to Ruth Barlow september8.1796in cantor. A Connecticut Yankee in a Barbary Court.
-23 puschner Uwe(2014)
33- https://www.britannica.com/biography/Cotton-Mather : Cotton Mather
34- . Mather, the Glory of Goodness, in Baepler, White Slaves, African Masters.
35- Mather, the Glory of Goodness, in Baepler, White Slaves, African Masters.